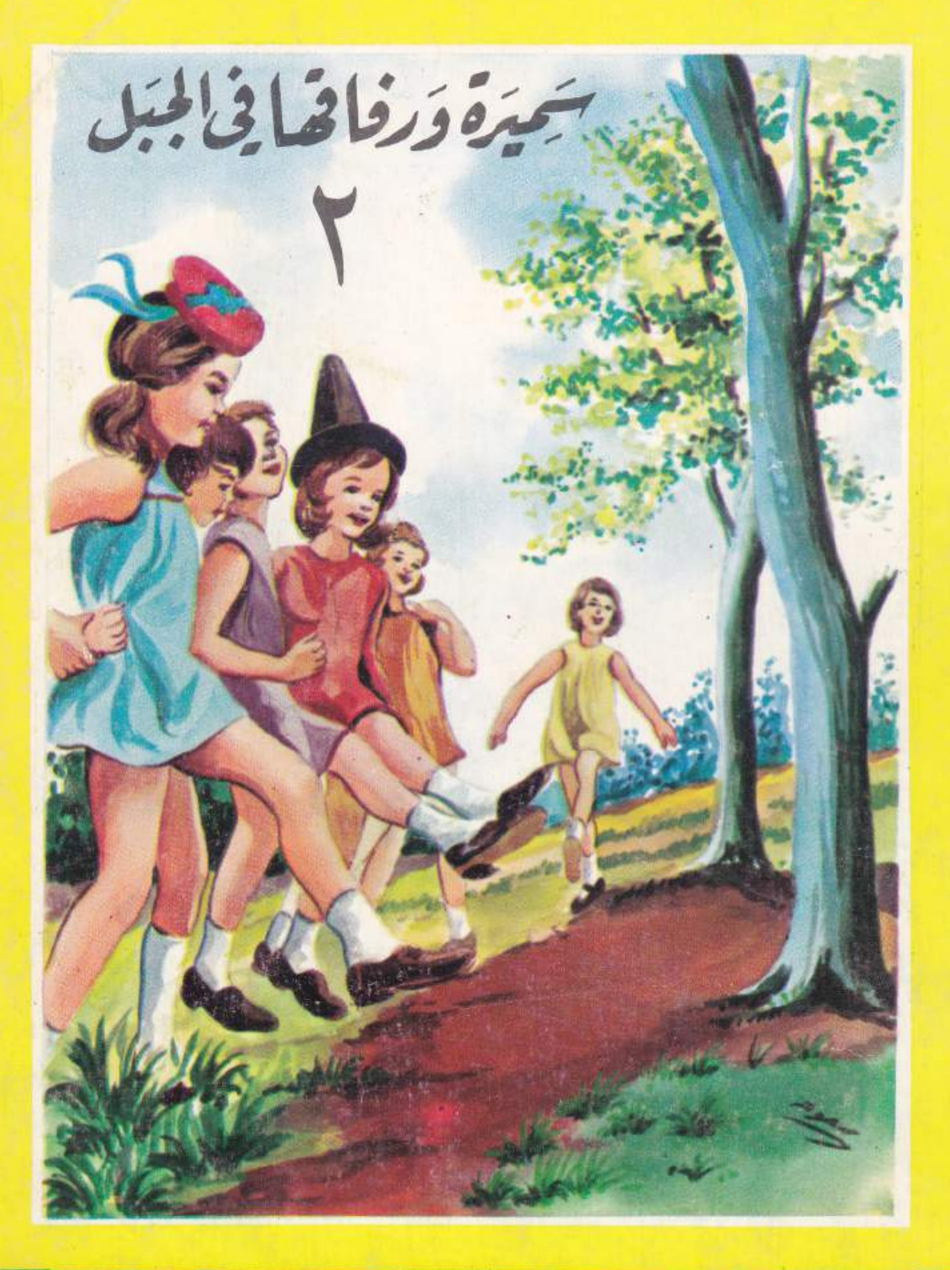
قصص مسرحية للأولاد

روز غريّب

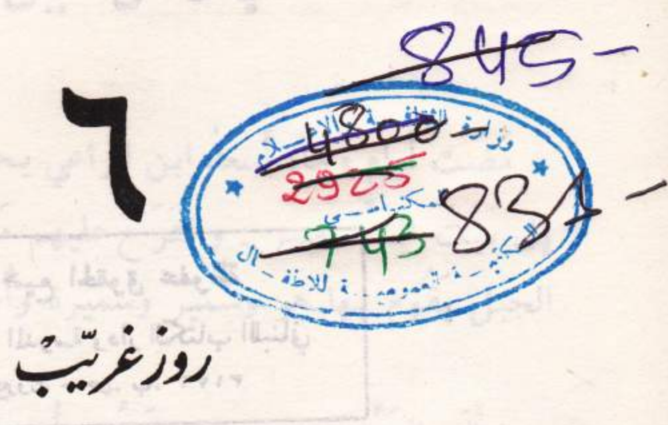


٦

الشركة العالميّة للكتاب

مجموعة قصص للأولاد

٦



روز غريّب

سميرة ورفاقها في الجبل





تصدرها
دار الكتاب اللبناني

١٩٨٦

في رأس الجبل

مَضَتْ أيام وجاءَ أَسعَدُ ابن الراعي يحمِل الجبن والحليب إلى بَيْت السَيِّد منير . واقتَرَح عليهم مَشرُوع رِحلَة إلى رأْس الجَبل يَقُوم بها هو وسمير وسميرة وأُختاه مَرْيَم ونَبِيهة .

سأَلَه السَيِّد منير : كم يَبعُد رأْس الجَبل عن القريَة ؟

أَسعد : مَسِيرة ساعة أو أَقَل .

الأَب : وهَل يَقدِر سمير على المَشْي ؟

أَسعد : إذا تَعِب أَحمِلُه على ظَهْرِي .

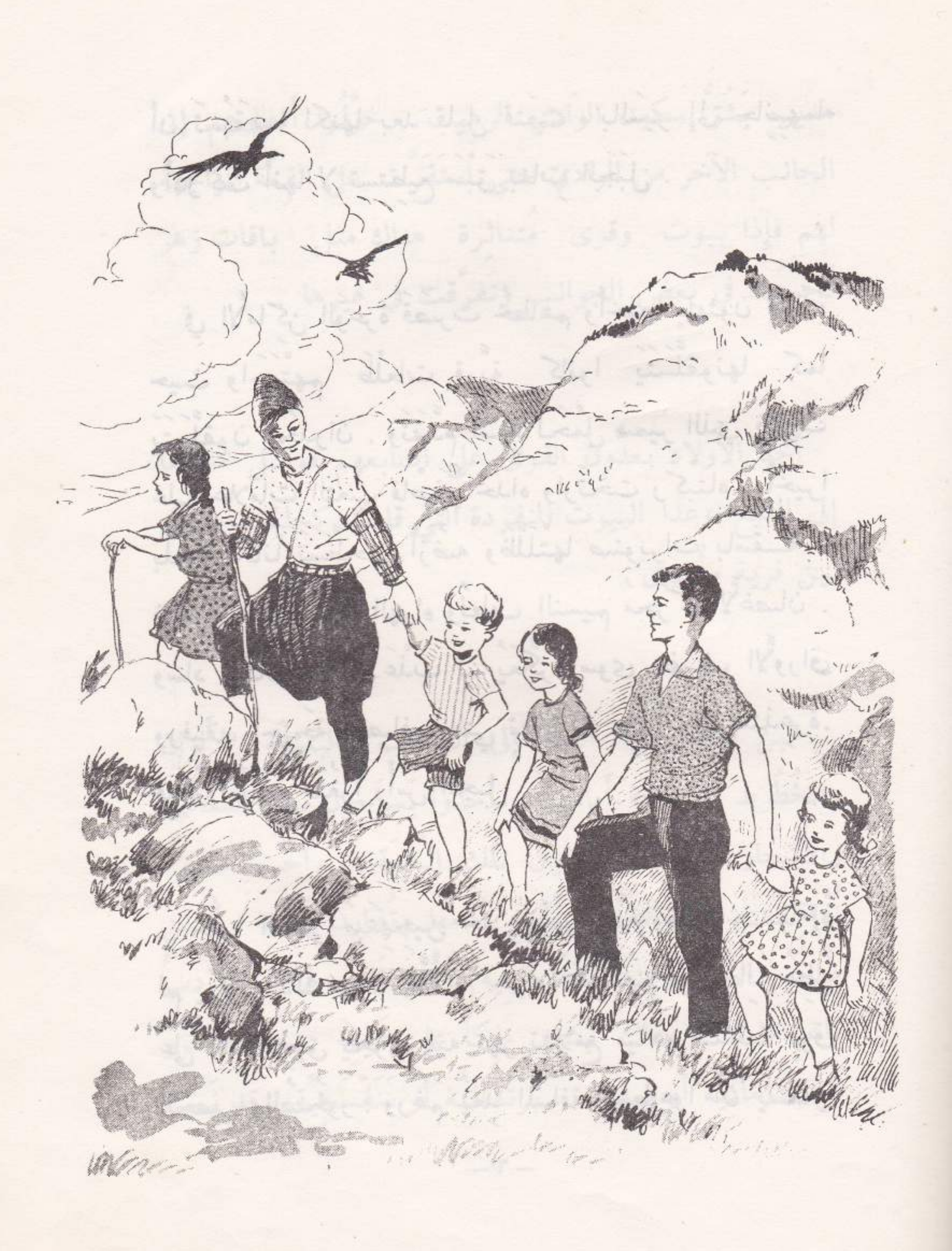
الأَب : لا نرِيد أن نُتعِبك ... نستأْجِر حمارا .

أَسعد : لا تَخَف ! أَقدِر على حَمْلِ اثنَين مثل سمير !

بعد أَن أَفاض والِد سمير في شكر الفتى أَسعد على مُرُوءَته ، رضِي باقتراحه وقَرَّ الرأْي على أَن يقُومُوا بالرِّحلَة بعد ظُهر اليوم التالي . ويرافقهم السَيِّد منير فَيَخْلُو البيت للأُم والجَدَّة وتَنْصَرِفان إِلى صَنع البرغل .

في الموعِد المقَرَّر، مشى الثلاثة يتناوَبُون حمل سَلَّة الزاد. وما لبث أَن انضَم إِليهم أَولاد الراعي الثلاثة. وسار الرفاق واحدا وراءَ الآخر في الشِعب الضَيق الذي شَقَّته أَرجل المارَّة والدَّواب نحو رأْس الجبل . مشَوا في طريق صَاعد تكْتَنِفه الحَصى والأَشواك والأَعشاب ، تُحاذيه الصُخور والنباتات البَرِّية ، حيث شُجَيْرات الوَزَّال شُعَل خضراء يَتعالى لَهَبُها نافِضاً عُقُود زَهرِه الأَصفر . والسُمَيسِمَة تتجَمَّع رؤُوساً كثيفة الشَعر تلَفَّعت بمناديِل لَيلَكِيَّة .

كان أَسعد يتقدم القافلَة الصَغيرة مُمسكاً بيد سمير الذي أَخذ يَخطو خُطَوات عريضَة ، فخورا بقدرَتِه على مماشاة الكبار . وكانت سميرة تماشي مريم ونبيهة محاوِلة



أَن تَسبُقَهما لكنها بعد قليل قنعَت بالسَير إلى جانبِهما وأَدركَت أَنها لا تستطِيع سَبْقَ بناتِ الجَبَل .

في الأَماكِن الوَعْرة قَصُرت خُطاهم وأَخذوا يلهثون تعباً ، حيث واجَهَتْهم طَلْعات قوِيَّة كانوا يَتَسَلَّقونها كما يَتَسَلَّقون الجُدران . وتَقَدَّم أَسعد لحَمْل سمير الذي ظهرت عليه علامات التعب فاصْفَرَّ خداه وارتَخت ركبتاه . أَخيرا بلَغُوا مكاناً تَسَطَّحَتْ أَرضُه وظَلَّلَتْها صنوبرات باسقــة . فشعروا هناك برِقَّة الهواءِ ولُطف النسيم مُحرِّكاً الأَغصان . وساد المكان سكون عَذْب لم يُعَكِّره سوى حفيف الأَوراق ورفيف أَجنِحَة العصافِير التي تطايَرَت من أَمامهم منذعِرة. فعلِمُوا أَنَّهُم بلَغُوا رأْس الجبل .

حَثُّوا الخُطى مُبتَهِجِين حتى بَلَغُوا قِمَّة وقَفوا عندها إذْ لم يكُن هناك مجال للتَّقدُّم . فرأَوا أَنفُسَهُم فَوق حالِق يُطِلُّ على وادٍ سحِيق يَجرِي فيه نهر تتلامع مياهه مُتدافعة فوق الحصى والصُخُور . ورغمَ بُعدِ المسافة استطاعوا أَن يسمعوا

هديره يَشُقُّ سكونَ الوَادي الرهيب . حوَّلُوا أَنظارهم إلى الجانب الآخر من الوادي حتى استَقَرَّت على القِمَّة المواجهة لهم فإذا بيوت وقرى مُتناثِرة هناك مثل باقات زهر تَجَمَّعَت في بعض الجوانِب وتَفرَّقت في غيرها .

أَخذ الأَولاد يَعُدُّون القرى على أَصابعهم فوصل عددها إلى السبع ، عدا البيوت المنفردة التي قامت كحَلَقات وَصْل بين قرية وأُخرى .

حين تَمَلَّوا من النَظَر إلى اللوحات البديعَة الأَلوان والخُطُوط اُلمنبَسِطَة أَمامَهم ، أَخذُوا يَسرَحُون بين الصُخُور والأَشجار التي قامَت فوق تِلك البُقعَة . راحَت سميرة تُراقِب أَشكالَ الصُخُور التي أَمامَها وتُقارِن بَينها وبين صُخُور الشَّطِّ . هذا صَخْر شبِيه برأْس ثَور وذاك مِثلُ دُبٍّ فاغِرٍ فاه . وذَلك يُشبِه مَلِكاً على عَرشِه . هُنا صُخُور نَخِرَة رَمادِيَّة أَو صفراء ، بُرتُقالِيَّة أَو بَنَفْسَجِيَّة . قد نَمَتْ

في جوانِب منها أَعشاب طُحلُبِيَّة [1] وأُشْنَة غَذَتْها مياه المطَر . وعلى الشَطِّ صُخُور نَخِرَة قاتِمة سَوداء سَقَتْها مياه البَحْر وكَسَتْها بالطَحالِب وبنباتات أُخرى لَزِجَة تفُوح مِنها روائح عَفِنَة .

لمحَتْ قرِيباً من بَعض الصُخُور عُشبَة يابِسَة لاصِقَة بالأَرض تَفَرَّعَتْ منها أَوراق طوِيلَة مُلْتَوِية شَبِيهة بِفُروع « نَجْم البَحْرِ » . أَلا يُمكِن أَن تَجِدَ هنا أَشياء مثلَ التي وَجَدْتَها على الشَطِّ ؟.. وعاوَدَتْها الرَغبَة في الاكتشاف فصَوَّبَت عَيْنَيها الحادَّتَين إلى الحِجارَة المُبَعْثَرَة فَوق التُراب فإِذا بها تَلمَح حجَرا حَلَزُونِيَّ الشَكْلِ مِثلَ الصَدَفَة التي لَعِبَتْ بها باللاقُوط . لٰكِن هذه من حَجَر خَشِن وتِلك من صَدَف لامع مَصقُول . إِذن هٰذه صَدَفَة مُتَحَجِّرة ! أَرسَلَت صيْحَة اندهاش ورَكَضَتْ إلى أَبيها وهي تَقُول : أُنظُر ! وجَدْتُ بَزَّاقَة مُتَحَجِّرة !

---

(١) الطُحلُب خُضرة تعلو الماء المُزمن والصخور الرطبة . والأشنة نبات دقيق يتكوّن على الصخور والسطوح والشجر بعامل الرطوبة .

ولم تَصبِر حتى تَسمعَ أَسئِلةَ الباقِين وتَعلِيقاتِهم بـلِ انْدَفَعَت في الرَكْض من جانِب إلى آخر ، باحثة مُنَقِّبَة بَين الصُخور وما لَبِثَت حتى عادَت وبيَدِها ثلاث مُتَحَجِّرات واحِدَة تُمَثِّل صَدَفة حَلَزُونِيَّة صغيرة . واثنَتان بِشَكْل صَدَفَتَين ضَخْمَتَين انْطَبَقَت إحداهُما على الأُخرى فكَوَّنَتا ما يُشْبِه القَلْبَ أَوِ الدُرَّاقة . وقالت لأَبِيها : هذه مِثْلُ التي لَقِيتُها على شَطِّ البَحْر حين ذَهَبْنا للنُزهَة . كان هناك صَدَفة من طَبَقَتَين في داخِلهما حَيوان صغير . لكِن هٰــذه كبيرة مُتَحَجِّرة والأُخرى من صَدَف رقِيق أَملَس .

نعم ، قال الأَب . في قدِيم الزمان كان البَحْر يَغْمُر هذه الجِبال القرِيبة منه ثُمَّ تراجَع تدرِيجاً فماتَت الحيواناتُ الصغيرة داخِلَ أَصدَافِها وتَرَاكَم التُراب متحجراً فوقَها فَتَضَخَّمَتْ كما تَرَين ... ستَجِدِين مثل هذه المتحَجِّرات أَيضاً في شِعاب القرية .

وقال أَسعد: هناك آثار ضَيعَة صغيرة تَفَرَّق سكانها واندثرت بيوتها . تعالوا نَبحَث لعلَّنا نعثر على بقاياهم المتَحَجِّرة !

بدأ الأَولاد يطوفون في البقعة التي أَشار إِليها أَسعد ، ويحدِّقون إِلى الأَرض باحِثين عن آثار الذين ذَهَبُوا . هنا أَلواح وأَعمدة ، خَشَبِيَّة غَبْراءَ أَو مُسْوَدَّةلا يزال بعضُها قائماً بينما انْطَرَح الباقي على الأَرض مثل عظام بالِية . بجانِبها كرمة تطاوَلَت بَعض أَغصانها وعرَّشَتْ فوق الخَشَبات القائِمة وتَمَدَّدت الأَغصان الأُخرى على الأَرض . كانت أَوراقها خَشِنَة قاتِمة الخُضرة قد تدلَّت منها عَناقِيد صغيرة أَكلَها الرَمَد .

غير بعيد عن تلك الأَعمِدَة اُلمهْتَرِئَة بقايا سُور مُنخَفِض بُنِي من حجارة داكِنَة تخاذَلَتْ وتساقَط أَكثرُها مُتَبَدِّداً وغَمَر بعضَها تراب أَحمر لِيِّن فلم يَظْهر إِلا بعضُ جوانبها.

قال الأَب : هذا سُور بستان صغِير كان يَحوي الدوالي وأَشجار أَخرى لم يبقَ منها سوى هذه الصَنَوبَرَات وهٰذه العريشَة .

كان أَسعد قد ابتعد عن رفاقِه مُجاوِزا السُور المتهدّم وإذا به ينادي : تعالوا انظُروا .

تراكَضوا إلى ناحِيته عَبر السُور ووقفوا حيث كان واقفاً فرأَوه يشِير إلى حجار مُبعثَرَة تُحيط بفوهَة بِئر قديمة فارغة تراكَمَ التراب في داخِلِها . فقال الأَب : يظهر أَن هذه البئر كانت تَسقِي ذاك البستان وربما كان يستقِي منها أُولئك الذين سكنوا هذه البقعة قديماً .

قال أَسعد : لهذه البئر حكايَة سأَرويها لكم . أَراد أَحد رجال قريتنا أَن يَنتَفع بهذه البِئر ويسقي من مائها قِطعة أَرض قريبة ، فنزَل لينظِّفها من الأَترِبَة المتراكمة داخلها ويهيِّئها لقبول أَمطار الشتاء . وطال مَكْثه داخل البئر حتى افتقده أَخ له كان يَعمَل في حقل مُجاوِر ، فأَسرَع في النزول وراءه ، لكن هذا الأَخ أَيضاً لم يَعُد . وجاء رجل ثالث يستطلع خبر الأَخوين فغاب داخل البئر ولم يرجِع . ولم يَجسُر أَحد بعد هذا على دخول البئر ، فقالوا إن فيها شياطين

أَو جِناً تَفتِك بالنازِلين . ومن ذلك الحين هُجِرَتِ البئر وهُجِرتْ هذه الأَرض التي كانت فيما مَضى ضَيْعَة عامِرة .

كان الأَولاد يُصغُون واجِمِين وهُم يَنظُرُون إلى داخل البئر . وخُيِّل لهم أَنَّهُم يسمعون أَصواتاً آتِية من القعر وحركة أَشباح تتلَوَّى وتتصارع . لكن الأَب أَزال مخاوفَهُم حين قال : « هذه البئر امتلأَت بغاز الفحم وهو غاز أَثقل من الهواءِ يَتَجمَّع في الأَماكِن المنخَفِضَة . مَن يَنزِل إلى داخِلِها يختنق من فساد الهواءِ ونقص الاوكسيجين . وهكذا اختنق الرجال الثلاثة الذين دخلوها . » ثم أَضاف : من أَراد النزول إلى بئر مهجورة كهذه ، أَو إلى قَبْو تحت الأَرض ، عليه أَن يحمل شمعة مُضاءَة فإذا انطفأَت حال نزوله يجب عليه أَن يعود حالاً ، لأَن هواءَ البئر غير صالح للتنفُّس .

سميرة : لماذا تنطفِيء الشمعة ؟

الأَب : لأَنها تحتاج إلى الاوكسيجين لإضاءتها . النار كالإنسان لا تعيش بدون أُوكسيجين .

سمير : ما هو الأُوكسيجين ؟

الأَب : هو غاز يؤلِّف قسماً من الهواءِ الذي نَتَنَفَّسه . إذا قَلَّ كثيرا أَوِ انعَدَم نموت . يَكثُر في الأَماكِن العالية ويَقِلُّ في المُنْخَفِضة .

سميرة : تعالوا نبحث عن آثار أُخرى للضَيعَة المهجورة .

عمِل الجميع باشارة سميرة فأَخَذوا يتنقَّلون بين الصُخُور والأَشواك . مشت سميرة برفقة والدها ومعهما مريم ونبيهة . أَما سمير فمشى خلف أَسعد الذي صار لـه رفيقاً مُلازِماً .

بعد قليل وقعت أَنظار الرُوَّاد على حجر أَبيض كالرخام منحوت على شكل قُبَّة صغيرة ، ركض إليه سمير وهو يقول : هذا حجر تحته كنز . مثل بلاطة علي بابا .

سارع أَسعد إلى قَلْب الحجر بيديه القويتين فإذا هو جُرن كُبَّة قد تحطَّم أَحد جوانبه الأَربعة المنحوتة .

وتَطَلَّع سمير إلى قطعة أُخرى بيضاءَ قد غَرق قسم منها في التراب فاقتلعها بيده مفاخرا وهو يقول بحَذَر هذه المرَّة : هذا مسدَّس ! هٰذا فَرْد !

ـ معك حق ، قال الأَب ، إنه يُشبِه المسَدَّس أَو الفَرْد . ولكن ياللأَسف ! هذا فَكُّ خروف ...

ضَجِر سمير من التَفْتيش فذهب مع أَسعد لزيارة كَهْف قريب . وتابع الباقون تَنقِيبهم مُدَّة ، وجمعوا الأَشياءَ التي عثروا عليها ،فكانت فَرْدة حذاءٍ عتيق وفَرْدة قَبقاب عتيق مطعَّم أَي مزخرف بأَصداف لامعة . ومِنْفَخاً بالياً كان يُستعمل لنَفْخ النار وإشعالها .

ـ القبقاب المطعَّم والمِنفَخ من الآثار التي قَلَّما نجدها

اليوم في بيوتنا ، قال الأَب . ولو كانا في حالة جَيِّدة لحملناهما معنا إلى البيت .

- أُنظر هذه الحَبَّة الصفراءَ اللامعة ، قالت سميرة وهي تُرِي والدها حَبَّة كبيرة مثقوبة وَجَدَتْها في التراب .

- إكتشاف لا بأْس به ، قال الأَب . هذه الحَبَّة الصفراء هي أَيضاً من صِنف المتحجِرات التي أَصبح إكتشافُها من اختصاصِك كما يظهر . هي حَبَّة مسبَحَة أَو عِقد كانوا يُسَمُّونَه عِقد كَوْرَبا أَو كَهْرَبا . حبَّاته مَصنُوعة من صَمغ مُتَحَجِّر ، أَصفر ضارِب إلى الحُمرَة ، أَصلب من الزُجاج وأَكثف . إسمه في الأَصل عنبر أَصفر ، ويُدعى كَوْرَبا أَو كَهْرَبا لأَنه إذا فُرِكَ بالأَصابع فَرْكاً قوياً يتكَهْرَب ، أَي يكتسب قوة جَذْب الأَشياءِ الخفيفة وإرسال شَرَر .

كانت مريم ونبيهة قد عثرتا على مُكْحُلَة مكسورة وقمقُم من نحاس مُسْوَدّ ومرضوض لتقَادُم عَهده . فقال

السيّد منير : ليس غريباً أن تَعثُر الفتيات على أدوات خاصَّة بالنساء . هذا القمقُم العتيق الشبيه بقِنِّينَة مستديرة البَطْن طويلة الحَلْق ، كان عند جدَّاتِنا آلة لِرَشِّ العُطُور ولا نزال نرى في المُتْحَف قماقم من زُجاج من عَهد الفينيقيِّين . أما المكحلة المكسورة فتُرينا وَلَع أُولئِك النساء بالتَّكَحُل .

قالت سميرة : أخو فؤاد الصغير كَحَّلُوه حين وُلِد .

الأَب : لا يزال بعْضُ الناس يَعْتَقِدُون أن الكُحل يُفيد العُيون وهٰذه عَقِيدَة باطِلَة كما أَظُن .

نظر السَيِّد منير إلى ساعته وقال : يجب أن نسِير الآن في طريق العَوْدَة .

مريم : بعد أن نأْتي بأَسعد وسمير . إنهما هناك في الكَهف .

واتَّجَهوا جميعاً إلى الكَهف فوجدوا الرفيقَين خارِجَين منه .

وصاح سمير : تعالوا انظروا ! وجدنا في الداخل اشياء كثيرة ! ناووس ومخابىء ودهالِيز !

سميرة : نريد أن نرى داخل الكهف !

وأَخذت تَجُرُّ أَباها نحوه وتَبعَهما الباقُون . ووقفُوا جميعاً يتأَمَّلُون الناووس القريب من المدخل فإذا هو صُندُوق كبير من حجر له غِطاءٌ مُسَنَّم السَطْح كظهر الجَمَل ، قد انكسر جانب منه وسقَطَ على الأَرض .

فكَّرت سميرة في صُندُوق جَدَّتِها الخَشَبِي الذي يُشبِه هذا الصُندُوق لكِنَّه أَصغر منه حَجماً .

– كان في هٰذا الكهف نواوِيس أُخرى ، قال أَسعد . سُرِق بَعضُها أَو نُقِلَ إلى المُتْحَف .

سميرة : ماذا وضَعُوا في هذه الصناديق ؟

أَسعد : كانَتْ قُبُورا للأَموات . لهذا حفروا لها الكُهوف ودَفَنُوها داخِلَها . لكنَّ اللصوص نَبَشُوا المَدافِنَ وأَخَذُوا ما فيها من كنوز .

نبيهة : كان فيها كنوز ؟

الأَب : كانوا يَدفُنُون مع الميت بَعض كنوزه . ولكِن هذا منذُ عَهْد بَعِيد جداً ، مُنذُ آلاف السنين !

أَخذ الأَولاد يتوَغَّلُون داخل الكهف غير عابِئِين بتحذِير السَيِّد منير . وقد جذبهم ما فيه من دهالِيز وكُوى في الجُدران أخذوا يُنقِّبون فيها لعلَّهم يَعْثُرون على كنوز دفينة . لكنهم عثروا على حُفَر ضَيِّقة تَمتَدُّ بعيدا في قلب الأَرض فسأَلوا أَسعد عنها .

ـ هي حُفَر تُسَمَّى أنفاقاً يَحفِرها القُنفُذُ ويَبِيت داخلَها

مع أَولاده في النهار فإِذا جاءَ الليل خرج منها وأَخذ يسعى في الحقول وراءَ طعامه .

سمير : هل رأَيت القُنفُذ ؟

مريم : أَنا رأَيته . هو حيوان أَكبر من الأَرنَب ، ومِثلَهُ يأْكل الخَضار والفَواكه والجُذور ، يَقضِمها بأَسنانه الحادَّة . لكنِ جسمه مكسُوٌّ بقَصَب طويل حادِّ الأَطراف شبِيه بالشوك يَمنَع باقِي الحَيوانات منِ افتراسِه ويَقُوم له مَقامَ السِلاح .

أَسعد : شَوْكُه مُرقَّش أَي مَنقُوش بأَسود وأَبيَض . سأُحدِّثُكُم في فُرصَة أُخرى عن صَيد القُنفُذ . أَما الآن فَيَجِب أَن نَعُودَ . لَقد غَابَتِ الشَمس وتأَخَّرنا .

لم يَخرجُوا من الكهف إلا بعد أَن ناداهم السَيِّد منير وانتَهَرَهُم بعُنف . ولما مَشوا في طريق العودة كانَت الشَمس

قد هَبَطَتْ في البَحْر وبَدَأَت العَتمَة تنْشُر ذيولَها على الجبال والسُهول . فَحَثُّوا خُطاهُم جادِّين في المسِير لكِنهم أدركوا أَن مَسافَة طويلَة تفصِل بَينَهم وبَين القَرْيَة. وأَخَذَ الظلام يَهبُط حَثِيثاً وهُم لا يَزالُون فَوق الشِعاب الوَعِرة الشَائِكَة القرِيبة من رأْس الجبل .

بعد قليل أَخذ سمير يتباطأُ في مِشيَتِه إذ أَدركَه التعب وخدشت ساقَيْهِ الأَشواك فحمله أَسعد على ظهره . وسُرعان ما خَيَّم الظلام ووجد الرفاق صعُوبة في رُؤْية طريقهم فكانوا يتعثَّرون وتَزِلُّ أَقدامُهم وتَضِلُّ بين الشِعاب الضيِّقة الملتوية .

ودبَّ الرُعب في قلوبهم فأَخذوا يتلمَّسون الطريق بأَيديهم ، يزحفون زَحفاً فوق الأَتربة والصخور ، فتَقَع أَيديهم حيناً على الشَوك وحيناً على نُتوءات الصخُور ونخاريبها وحيناً آخر على كتلة باردة مَلْسَاء يظُنُّونها حَيَّة أَو ما يُشبهها فيصرخُون خائفين .

بعد جهاد طويل لاحت لهم من جانب القرية انوار ضئيلة وسمعوا صَفِيرا أَجابه أَسعد بمِثله . وعرفوا أَن بعض أَهل البيت قد جاؤُوا بالمصابِيح للقائِهم فاطمأَنت نفوسِهم وتَنَفَسُوا الصُعَدَاءَ .

حين وصلوا إلى بيت الراعي عَزَّام كان الليل قد أَرخى سُدُوله واشتعلت المصابِيح في بيوت القرية وخَيَّم في أَرجائها هدوءٌ مُريح .

تهالَكُوا منهوكِين على المقاعِد التي هُيِّئت لهم في ساحة الدار وجاءتهم امرأَة الراعي بأَكواب شراب تناولوها بفرح . ووصلت إلى أُنوفِهم روائِح الأَزهار العطرة التي زَيَّنَت المكان فَتَنَشَّقوها بارتياح . وحانت منهم التفاتة نحو الجِدار فرأَوا الزَهْرَة الكبيرة البَيْضَاء التي لا تَتَفَتَّح إلاَّ في الليل . كانت هناك بِمِلءِ جمالِها ورَوعَتِها ، تُطِلُّ من بين أَوراقِها الخَضْراءِ كبالون من فِضَّة أَو قِنديل جَبَّار ، تَتَلأْلأُ في نُور المِصباح الخَافِت بلَمَعان يأْخُذ الأَبصار .

تسمَّرت عيونهم على ذلك المنظر ونَسُوا كُلَّ أَتعابهـم وَوَدُّوا لو جَلَسُوا هناك حتى الصباح .

حين بلَغوا بيتهم فوق رابية الصَنَوبر ، يَصحَبُهم عزّام ويتقَدَّمهم ابنه توفيق وبيده مصباح من زجاج أُحكِم إقفالُه ، كانت الجَدَّة والأُم في انتظارهم وقد أَخذ القَلَق منهما مأْخَذَه فاستقبلَتا العائِدِين بعبارات النَقْمَة والغضَب : شَغَلْتُم بالنا . كِدنا نَمُوت من الخوف والقَلَق خصوصاً على سمير ... لم نَستَطعْ تناوُل طعامنا ... أَردْنا أَن نَسِير إلى بَيت عَزّام لنَسْتَطْلع أَخباركم رَغْمَ أَنّنا نكَادُ نَهْلِك من التَعَب ...

بعد فَتْرة استِراحَة قالَتِ الجَدَّة : أَرجو أَن تَكُونوا قد تُبتُم عنِ الرِحلات بعد الذي لقِيتُم مِن أَهوال ...

ـ لا ! لم نَتُب .. قال منير : سَنَرْحَل بعْدَ أَيام قليـلة إلى القُصور المُنيفَة لنشاهِد آثاراً قديمة عُمْرُها كما

يقُولُون خَمس مِئَةِ سَنة . حَرَام أَن نَترُك هذا المكان مِـن غَير أَن نَرى تِلك الآثار .

ـ ما هي القُصور المنِيفة ؟ سأَلَت سميرة .

ـ القُصور العَالِية ويُسَمُّونها أيضاً قُصور الحجلان . ربما سُمِّيَت كذلك لارتفاعها أَو لأَن اهلها أُولِعُوا بصَيد الحَجَل وتربِيَته[1] ... لكننا سنذهب في الصباح لئلا يَدهَمنا الليل ونحن في الطريق . وسيكون معنا أَسعد بن عَزَّام ليَروِي لنا ما يَعرِفُه عن تلك الآثار .

كانت سميرة تُراجع في ذِهنها حوادِثَ الرحلَة وتَتَحَسَّس بيَدِها حَبَّة الكَوْربا والمتحَجِّرات التي خَبَّأَتها في جَيبها . ها هِي ذي قد حَصَلَت على المتَحَجِّرات التي تَحَدَّثت عنها المعلِّمَة حِين قالَت : « سَنَجْمعُها في رِحْلَة أُخرى » . هـا

---

(١) الحَجل : طائر بحجم الحمامة مرقش الريش .

إنها قد اكتَشَفَتْها بنَفْسِها . بدُون مُساعَدَة أَحد . وسَتُفاجِئ بها المعلِّمَة والرفِيقات حِين تَعُود إلى المدْرَسَة ... ولما سَمِعت قولَ أَبيها : « لا ! لم نَتُبْ ! سَنَرْحَل غدا إلى القُصور المُنيفة ! » خَفَقَ قَلْبُها نَحْوَه بشعور الامتنان والإعجاب : « يا له مِن شجاع ، لا يَخاف غَضَب أُمِّه ! » وراحَتْ تفرُكُ الحَبَّة الصفْراء لِتَرى هَل تَتَكَهْرب وتَبعَث الشَّرَر ؟

هل تنطق الآثار؟

أيقَظَتْهم عِند شَقِّ الفَجْر روائِح عَطِرَة آتِية مِن ناحِية الخَيْمَة حَيْث كانَتِ الجَدَّة تُهَـيِّء قَهْوَة الصباح على نار أَشعلَتها من عِيدان النِغت والشعنين . فنهضوا نَهْضَة واحدة وبَعْدَ أَن أَقبلُوا بِنَهَم على تَناوُل الفَطُور واستأْذَنُوا الجَدَّة والأُم بالذَهاب ، مَشَوا في اتِّجاهِ القُصور المنيفَة .

كان السُكُون يَغمُر الجَبَل . النَّدى يُبلِّل العُشْب وضباب كثِيف يَغشَى الأَودِية ثم يَزْحَف مُتَبَدِّدا فَوق الجبال .

من وراءِ رابِيَة الصَنوبَر ارتفَعَتْ أَصوات سمعوا لها في سُكون الصباح البَلِيل رَنَّة مُثِيرة . كان أَحد المكارِيــن يَسُوق حمارا كالبَغل يقرع الصُخُور بحوافِرِه . وبَرَزَ قَطِيع غَنَم مُتَدَافِعاً نَحْوَ الوادي تَسُوقُه راعِيَة صغيرة تُلَوِّح

بعصاها فَتَتَرَاكَضُ الأَغْنام أمامَها ثاغِية ، مُتهالِكَة مِن جَلٍّ إلى جَلٍّ ، وتَتَطَايَر في طرِيقها الحِجارَة والحَصَى .

إنضَمَّ إليهم أَسعدُ ابن الراعِي عَزَّام فمَشَى أَمامَهُم مِشيَة القَائِد الفَخُور. ولاحَت لَهُم القصور عَن بُعد رابِضة فَوْقَ التلال، شامِخَة مَهِيبَة يَزِيدُها الخَراب مَهابَة وجَلالا ، فاقْتَرَبُوا منها خاشِعِين كما يَقْتَرِب العابِد مِنَ الهَيكَل .

البِنايَات تَتَعَانَق في ناحِية وتَتَباعَد في غَيرِها . فَرِيق جاثِم قَدِ انهارَتْ أَكثَر أَجزَائِه وفَرِيق شامِخ مُتَطَاوِل نَحْوَ السَّحَاب ، جُدرانُه المُصْمَتَة مَصْبُوغَة كَحجَرٍ واحِد مَصْقُول ، ملْسَاءَ تَزلَق عنها النِمال ... هو بقايا قَلْعَة حصِينة بُنِيَت لِصَدِّ العَدُو وإيواءِ الصَدِيق .

إتَّجَهَت أَنظَارُهم إلى المدْخَل المؤلَّف من قَنْطَرَة حَجَرِيَّة عَظِيمَة ، تناوَبَت فيها الحِجَارَة بَيضَاءَ وصَفْراءَ . حَوْلَها

الجِدار الأَمامِي الذي يؤلِّف واجِهَة البِناء وتَتناوب فيه مدامِيك الحِجارَة بَيْضَاءَ وصَفْراءَ .

دخَلُوا من القَنْطَرَة المنْقُوشَة إلى الساحَة الواسِعَة التــي قامَت عن جانِبَيها بِنايات عالِية لَعِبَت بها أَيدي الدَّمار . وصَعِدُوا السُلَّم الحَجَرِي إلى الغرفَة العُلْيا التي سُمِّيَت غُرفَةَ الأَسَدَين لأَن فيها شِعار الأُسرَة الحاكِمَة : أَسدَان مَنْحُوتان في الرُخام يُواجِهان الداخِل من اليَمِين ، مَعْقُوفا الذَنَب ، وفي عُنُقَيهما سِلسِلَة تَتَدَلَّى إلى الأَرض .

حَولَ غُرفَة الأَسَدَين جُدران ضَخْمَة تَنتَهِي بسَقْف مُقَبَّب ، نُحِتَت فيها مِنَ الداخِل خَزَائِن وكُوى مُتقَابِلَة ، كبيرة وصَغيرة ، بَعضُها مُسْتَطِيلةُ الشَكْل وبَعْضُها تَقَوَّس أَعلاه واسْتَدَقَّ على شَكْلِ حَرْبَة .

قال أَسعد : الجُدران من نَوع الكَلِّين أَي أَنها مَصْنُوعة من

صَفَّين أو أكثَر مِنَ الحجَارَة الكَبِيرة ، تَمْلَأُ فَراغاتِها حِجارَة صغيرة وأَخلاطُ الكِلْس ، وبِفَضْل كثافَتِها استَطَاعُوا أَن يَنْحَتُوا فيها الخَزَائِن والكُوى .

ـ لِمَ الخزائن والكُوى ؟ سأَلت سميرة

أَسعد : الخزائن للثِياب ولِحاجَات أُخرى .

سميرة : والكُوى ؟

أَسعد : ألا تَرَين آثار اللَّهِيب على جُدرانِها المُسْوَدَّة ؟

سميرة : هل كانوا يُشعِلُون فيها النار ؟

أَسعد : في هذه الكُوى الكبيرة أَشعَلُوا النار للتَدْفِئَة . أُنظُري داخِلَها تَجِدِي ثَقْب المدْخَنَة التي يَصْعَد منها الدُخان إلى الخارج ، إلى السَّطح . أَما في الكُوى الصغيرة فقــد

وضَعُوا السُرُج والشُموع التي استضَاؤُا بها إذ لم يكُـن عندهم كَهْرَباء ولا كاز .

سميرة : ماذا وَضَعُوا في السِراج ؟

أَسعد : زَيْت الزيتُون الذي أَنتَجَتْه كُرُومُهم . والناس ما زالوا حتى اليوم يُوقِدُون الزيت في المعابِد بواسِطَة فَتيلَة يَغمِسُونَها في هذا السائِل ، مَوضُوعاً في سِراج ؛ أَو في وعاءٍ مِن زُجاج .

سمير : هُنا قَنطَرَة وهُنا قَنْطَرَة ... وهُناكَ قَنْطَرَة !

سميرة : قَنْطَرَة فَوقَ المدْخَل ، قَنَاطِر فَوْقَ الأَبواب وفَوْقَ النَوافِذِ ، قَناطِر في الجُدران ، قناطِر في كل مَكَان !..

الأَب : القَناطِر والطاقات (الأَبنِية المنعَطِفَة الخُطُوط) هي أَهمُّ شَيءٍ يُمَيِّزُ المباني التي صَنَعَها أَجدادُنا . كانوا يُحِبُّون القناطِر .

سميرة : وأَنا أُحِبُّها .

الأَب : لمــاذا ؟

سميرة : لأَنها تُزَيِّنُ البِناءَ .. الباب الذي على شَكْل قَنْطَرَة أَجمل مِن الباب المُربَّع .

الأَب : أَجمل من المربَّع ومن المسْتَطِيل . في رأْيك أَن الخَط الذي يَلْتَوِي أَجمل مِنَ المسْتَقِيم ... لٰكن ليس هٰذا مُؤَكَّداً .

إنتَقَل الرِفاق إلى غُرفَة محاذِيَة فيها آثار رسُوم منقُوشَة في الجِصِّ الذي طُلِيَت به الجُدران ، وقد تساقطَ بَعضُه وثَبَت البَعض الآخر . رأَوا رُسُوماً نافِرَة تُمَثِّل زُهُورا وحمَائِم وشَجَرا هَرَمِي الشَكل شبِيهاً بالأَرز أَو بالسَرْو ، ورَسم أَسد وإبرِيق قهْوَة .

– يَظْهَر أَنَّهم كانوا يَشْرَبُون القَهْوَة هُنا ، قال الأَب .

ـ هٰذه غُرفَة جُلُوس واسْتِراحة ، قال أسعد . نَسْتَدِلُّ على ذٰلك من هٰذه الشُرفَة ذات الشُبَّاكِ اُلمزدَوِج الذي يتَّصِل به حَوض لِلأَزهار ويُطِلُّ على أَودِيَة مُمتدَّة ومَناظِر خَلاَّبة ..

ـ هذا مِثلُ الشُبَّاكِ الذي في بَيْتِنا في الجَبَل ، قال سمير .

ـ شُباك القَمَندلُون ، أَكْمَلَتْ سميرة .

أَطَلَّ الأَربَعَة مِنَ النافِذَة المزْدَوِجَة فانكَشَفَتْ لَهُم السُفُوح اُلمدرَّجَة التي كانت تُنبِت قدِيماً أَنواع الأَشجار المثمِرَة والبَقْلَ والحُبُوب والخَضَار وكُل ما يحتاج إليه سُكَّان تِلك الناحية من غِذاءٍ . وتُغطِّيها الآن الأَشواك وبَعْض الأَشجار الحَرَجِيَّة .

قال أَسعد : كانوا يَجُرُّون المياهَ في قَساطِل تَمْتَدُّ تحت الأَرض . تَعالوا نَذْهَب الآن لِزِيارَة الحَمَّام .

نزَلَ الأَربَعَة وَرَاءَ أَسعد . فأَشار إلى دِهلِيز أَو مَمَرٍّ طَوِيل ضَيِّق مَسقُوف يكادُ يَكُون مُظلِماً . وقال : هٰذا الدِهلِيــز

يصلُ بَين البِنايات . بواسِطَته كانوا يَنتَقلُون من بِناءٍ إلى آخر في الشَمْس أو في الشِتاءِ مِن غَير أَن يُؤذِيهُم الحَرُّ أو المطَرَ .

قال الأَب : هٰذا الدِهليز كان يُفيد السَيِّداتِ اللواتي تَجَنَّبْنَ الظُهور للناس واعْتَصَمْنَ بهٰذه البُيوت الشَبِيهة بالقِلاع .

وَصَلُوا إلى غُرفَة الحَمَّام التي كان حائطُها مُستدِيرا على شَكْل الصَخْر الذي بُنِيَت فَوقه . ولاحَظُوا في جَانِب منها قِطَعَ الفَخَّار الباقِية مِن القَسَاطِل الضَخْمَة التي سالَت فيهاالمياه. وفي جَانِب آخر شاهَدُوا ما تَبَقَّى من جُدرانِ غُرفَة صغيرة كانوا يُوقِدُون فيها النَّار تَحت خلْقِين [1] كَبير يَمْتَد منه أُنبوب الماءِ الساخِن ويَصُبُّ فوق جُرْنِ الحَمَّام .

ـ يَظْهَر أَن الحمَّامات كانت تُبنَى بَعِيدة عَن غُرَف النَوم والسكَن . قال الأَب .

---

(١) الخلقِين : وِعاء كبير ُيغلى فيه الماء ويسمى أيضاً الدَسْت .

أَسعد : رُبَّما جَعلُوها بَعِيدَة لِيَأمَنُوا أذى الدُخان الصَاعِد مِنَ المداخِن . هكَذا أَيضاً أَفْرَدُوا عن غُرَف النوم أماكِن الطَبْخ والغَسْل والمَرَاحِيض وكُل ما يَنشُر في الجَوِّ روائِح مُزعِجَة أَو يُسْتَخْدَم للتَنْظِيف وإزالة الأَقذَار . فكانت أَطبَاق الطَعام تُحمَل إليهم من بِنايَة إلى أُخرى على أَيدي الخَدَم .

سميرة : كانوا يُحِبُّون النظافة .

سمير : أَكثَر السُقُوف مهَدَّمة . لا أَرى بيتاً له سَطح .

أَسعد : السُطُوح التي صُنِعَت من تُراب وخَشَب لم تكُن متينة كَحِيطَان الكَلِّين المصْنُوعة من صُفُوف حِجارَة مُتَراصَّة .

سميرة : كيف صَنَعُوا السَطْح ؟

أَسعد : حين لا يكون السَقْف مَعْقُودا من حَجَر ،

يصْنَعُونَه من أَخشاب عريضة وركائِز يَصُفُّونها طُولاً وعرضاً فَوقَ الجُدران ثم يُغَطُّونها بالبَلّان (عُشب شائك) يَسُدُّون به الشُقُوق ويَهيلُون فوقَها غِطاءً كثيفاً منَ التُراب والطِين ، يَحدلُونَه فيما بعد بالمَحْدَلَة ليُصبِح مَصقُولاً مَرصُوصاً لا يَنْفَذُ إِلَيه المطَر .

وأَشار إلى حَجَر قَرِيب ، أَبيَضَ اللون ، أُسطُواني الشَكْل ، مثقوب الطَرَفين فقال : ها هي المحدَلَة . كُنّا نُشاهد واحِدة مثل هٰذه فَوقَ كُل سَطح أَما الآن فأَكثَرُ السُطُوح من قِرميد أَو من أَسمَنت ولا تحتَاج إلى مَحدَلَة .

ـ لهٰذا نرى في جِدار كُلِّ بَيت قَديم أَو مُهَدَّم دَرجاً خارجِياً يَصْعَد إلى السَطْح ، قالت سميرة .

ـ نعم ، قال أَسعد . هذه الدرجات الحَجَرِية لا تزال قائِمَة ، رَغْمَ انْهيارِ السُطُوح . أَمَّا المحادِل فَمَطْرُوحَة على

الأَرض ، حَزِينة المنظَرِ ، كأَنَّها تَندُب عِزَّها الماضي ، يَومَ كانَتْ فَوقَ السُطُوح .

وقال الأَب : كان السَطح عَرْشَها وكان الناس يقُولُون « العقْل زِينَة والمحادِل عالسُطُوح » أَي أن العَقْلَ يُزَيِّن الإِنْسان ما دامَت المحادِل فوقَ السُطُوح ، كأَنَّها باقِيَة هُناكَ إلى الأَبد . وقد فاتَهُم أَن العُرُوش لا تَدُوم !

أَسعد : كان أَجدادُنا يَبْنُونَ البَيْت فوق قَبْو من عقْد ، يعقدُون سَطْحَه ، أَي يَجْعَلُونَه من حجارة تَنعَقد وتَتَلاقى كالأَضْلاع الضَخْمَة في سَقف مُقَبَّب كالذي شهدناه في غُرفَة الأَسَدَين . فيكُون القَبوُ عظِيم المتانَة يَلْجَأُون إليه في الغارات والحُرُوب . أَما في أَوقاتِ السِلْم فقد جَعَلُوا الأَقبِيَة المعقُودة إِصْطَبلات للخُيول ومَعاصِر للزَيْتُون والخُمُور ومخازن للحُبُوب والمؤن ونَحوِ ذلك .

وَصَلُوا إلى جَانِب قَبْوٍ كان سَطْحُه لا يَزال قائماً فتسَلَّقوا الدَرَجَات المغْروسَة في جانِب مِن الجِدَار ، ووَقَفُوا على السطح

يُسَرِّحُون أنظارَهم بين الخَرَائِبِ المتناثِرَة فَوق الأَكمَة ، تَحُفُّ بها السُفُوح المدرَّجة والأَودِيَة الشَجْراء ، فبَدَتْ لهم صامِتَة صَمْتَ القُبُور ، حتى الطُيور قد هَجَرَتْها ، فلا أَعشاش هُناك ولا عصافِير مُغَرِّدَة .

قال الأَب : هٰذه الآثار تَنطِق رَغْمَ صَمْتِها .

ـ هل تَنطِق الآثار ؟ سأَل سمير .

ـ نعم تَنطِق الآثار ، قال الأَب . أَتَخَيَّلُها أَيَّام عِزِّها فأَسمع حَمْحَمَة الخُيُول في الإِصطَبْلات ، هَدِيل الحَمَائِم فَوقَ السُطُوح ، دَوِيَّ النَحْلِ في الخَلايا ، هَدِير الطَواحِين والمعاصِر ، صِياحَ الدِيكَة فَوق المَصاطِب ، وخَرِير المياه في المجارِي والأَنابِيب ، وأَسْمَعُ الآثار تَتَكَلَّم .

سمير : مـاذا تَقُول ؟

سميرة : تَقُول إنَّ أَجدَادَنا أَحبُّوا القَناطِر ورَغِبُوا في النظافَة .

الأَب : وأَحَبُّوا الزِينَة فَنَحَتُوا الرُسُوم على الحجـارَة والجُدرَان لكِنَّهُم كانُوا أَهْل ذَوْق . لم يُكْثِرُوا من الزَخْرَفَة

بَل حَصَرُوها في بَعْض أَجزاءِ البِناءِ ، في أَسْفَل القَنْطَرة ، في إِطار الباب أَو النافِذَة .

أَسعد : أَحَبُّوا البِناءَ المتين . جَعَلُوا كل أَبنِيَتِهم من حِجارَة مُنَوَّعة الأَشكال والأَلوان . نَحَتُوا مِنها الأَجـران والأَعمِدَة وحِجارَة الرَّحى .

الأَب : لكنَّ متانَة أَبنِيَتِهم لم تَرُدَّ عَنهُم عَوادِي الزَمَن!

أَسعد : أَحبُّوا الأَرض واعْتَنَوا بها . شَقُّوا الصُخُور ، فَجَّرُوا اليَنابِيع ، شَجَّرُوا السُفُوح والجِبال ، فـاضَتْ بيادِرُهُم ومَعاصِرُهم بالغلال وأَكَلُوا من ثِمار أَرضِهم . أَطْعَمُوا منها الناس ، حَفَلت منازِلُهم بالضُيُوف وارتاحوا لِلبَذْل والعَطَاء !

الأَب : ثم مالُوا إِلى الدَعَة والسُكُون فهاجَمَهُم أَعدَاء طامعُون ، وتركُوا دِيارَهُم خَراباً تُحَدِّث الناس عَن عِزِّهِم وتَقُول : انظُرُوا ما فعَلَت بي أَيدِي البَغْضاءِ وما جَنَتْه عَلَيَّ المطامع والحُرُوب ...

سهرة الوداع

في أواخرِ أَيلُول هَبَطَت أَمطار مُنعِشَة صَحَّ بها المَثَل القائِل : « أَيلُول طَرَفُه بالشِتاءِ مَبْلُول » . وسَرَح الوَلدان مع جَدَّتِهما يَجْمَعان البَزَّاق ويُمَتِّعان أَنظارَهُما بِمَنْظَر الطَبيعَة ، بَعْدَ المطَر الذي غَسَل الصُخُور والأَشجَار وأَنْعَشَ الزَّهْر ونَشَرَ في الجَوِّ رائِحَة الأَرض النَدِيَّة .

أَخذَ أَهْلُ البَيْت القائم فَوق الرابِيَة يَتَهَيَّأُون للرُجُوع . وَشُغِلَتِ الأُم والجَدَّة برزْم وتَوْضِيبِ المؤَن والأَطْعِمَة التي أَنفَقَتا الصيفَ في صَنْعِها بِغِيرة وصَبْر عَجِيبَين . مَلأَتا بَعْضَ الآنِيَة الخَزَفِيَّة بالزَيْتُون المرصُوص والزَيْتُون المسَبَّح وشَرَاب البَنَدُورة . وأَوعِية زُجَاجِيَّة بالخَلِّ والمربَّيَات . وأَوعِيَة من تَنَك بالبُرغُل والدِبْس والتِين اليابِس والمطْبُوخ أَما الكِشْك والزَبِيب فَوُضِعَا في أَكياس مِنَ الخام .

وأقْبَلَ القَرَوِيُّون لِيَسْهَرُوا عِنْدَهُم سَهْرَة الوَدَاع . جاءَ الراعي عَزَّام وزَوجَته وأَولادُه وأُسْرَة يوسف عَسَّاف وعَدَد من المُغَنِّين والقَوَّالين . دَخَلُوا هازِجين مُتَرَنِّمين بأَصوات الحِدَاءِ .

لن تَنسَى سميرة تِلك السَهْرَة التي جَلَس فيها الضُيُوف صُفُوفاً مُتَقَابِلَة فَوقَ المقَاعِد الحَجَرِيَّة التي في الليوان . كان القِنديل الزُجاجِي الكَبِير يُلقِي أَشِعَّتَه الرَّجْرَاجَة على اللَفَّات واللُبَّادات والزَّنانير الحَمْراءِ والسَراوِيل الواسِعةِ السَوْدَاءِ فيَرسُم لها على الجُدران ظِلالاً عَجِيبَة الأَشْكال .

إفْتَتَح السَهْرَة توفيق ابنُ الراعِي عَزَّام فنَفَخ في نَايِه نَفْخَة طوِيلَة مُمتَدَّة ، انْتَفَخ معها صَدْرُه وخَدَّاه وارتَفَعَت أَنغَامُه حُلْوَة صافِية انسَكَبَت كالنَّدى في قَلْبِ الليْل .

وغَنَّى واحِد من القَرَوِيِّين مَوَّالا وعَتابا . كان يَنْظُر إلى السَّقف مُسْنِداً رأسه بِيَدِه ، يَهُزُّه هَزاً خفيفاً ، ويُطْلِق

صَوته بآهات يُرَدِّدُها في حَلْقِه ترديداً مُتَّصِلاً ، مُظْهِرا للسامِعِين قُدرَتَه على حَبْسِ نَفَسِه وحَبْس أنفاسِهم مَعَه .

حَفِظَت سميرة من أَغانِيه قوله :

بوَسْطِ الدَار لارفع لِك عريشه



لو أني طَير لحَملتِك عريشِي
بقَلْب الغَيْم لافَتِّش عَرِيشه
واكتُب المكتوب يَرْوِي خبارنا

أعجَبَتْها لفظَة « عريشِي » التي تَتَرَدَّد ثَلاث مَرَّات .

ثم بَدَأ واحِد من القَوَّالِين في الإِنشَاد . تَغَنَّى بأَشْعار فَخْمَة فيها مَدْح لِرَبِّ البَيت وفيها مُفاخَرَة بأَشْعارِه وبَرَاعَته في النَظْم . كان صَوْتُه كالرَّعد وعَيْناه تَبْرُقان حِين يُنْشد اللازِمة التي يُرَدِّدُها من وَرائه الحاضِرُون . وانْبَرى لَهُ قَوَّال آخر يُقارِعُه في الزَّجَل [1] ، يُبارِيه ويُخاصِمُه ، حتى صار كُلٌّ منهما كدِيك هِراش يَتَحَفَّز للهُجُوم على الآخر . وانْقَسَم الحُضُور فَرِيقَين كُلٌّ يَدْعَم أَحَدَ الخَصْمَين ويُحَمِّسه بالتَصفِيق والهُتاف . ولما أعلن القَوَّال الثاني

(١) الزَّجل : شعر باللغة المحكيَّة .

أَنه يَسْتَطِيع الصُّمُود لِخَصْمِه حتى صِياح الدِيك وانْبِلاج الصُبْح ، رأَى عَزَّام ضَرُورَة التَّدَخُّل لإسكاتِهِما فاقْتَرح على الشَبَاب رَقْصَ الدَبْكَة . وما هي إلا لَحْظَة حتى تَحَرَّكَتِ الأَقدام وتَشَابَكَت الأَذْرُع وقادَهُم أَسعد في دَبكَة مَرِحَة حَماسِيَّة ارْتَجَّت لها جُدران البَيْت وأَركانُه وظَنَّت سميرة أَنَّ الأَرض قد زُلزِلَت .

كان سمير وجَدَّته قد غَرِقا في نَوم عَمِيق لم يُوقِظْهُما مِنْه ضَجِيج الدابِكِين . ولم يَبْقَ ساهِرا لتوْدِيعهم إلا سميرة ووالداها .

ـ هل فَهِمْتِ شَيْئاً مِمَّا قالُوه ؟ سأَلَتِ الأُم ابنتها .

ـ لم أَفْهَم إلا قلِيلا ، أَجابَت سميرة ، ولكِن ... وأَشَارَت بِيَدِها إشارَة عرِيضَة ... إِنَّهُم أَقْوِياء

ـ « مِثل المصارِعْجِيَّة » ، أَكمَلَت الأُم .

وأَضافَ السَيِّد مُنير : حَياتُهم كَدٌّ وكِفاح . يُصارِعُون الأَرض والطَقْس والصَخْر والفَقْر . ويَظهَر أَثَر هٰذا الصِراع في رَقْصِهِم وأَغَانِيهم وأَصواتِهم .

لم يَمضِ على تِلك السَهْرَة يَومان حتى كانت سميرة وأَخوها وباقي الأُسرَة يُلقُون نَظْرَة الوداع على الجَبَل . يَقُولُون وَدَاعاً للعَنْزَات والصَّرارات والحَورات والصَنَوبَرات والراعي عَزَّام ويُوسُف عَسَّاف وأَولادِهما .

وفي صَباح رائِق بَلِيل كانُوا يَهبِطُون التَلَّة المُعْشِبة مع المُكاري والحِمارَين ، متَّجِهِين نَحْو القَرْيَة الساحِلِيَّة .

إنتَقَلُوا من بيْتِهم القديم في الجَبَل إلى بَيتِهم القَدِيم في السَّاحِل . وشَعَرت سميرة وأَخُوها بِبَهْجَة الانتقَال واللقاء . خُيِّل لَهُما أَن البَيت صَدِيق قدِيم يَسْتَقْبِلُهما مَسْرُورا فاتِحاً ذِراعَيه .

وفيما كانَتِ الأُم والجَدَّة مَشغُولتَين بِتَنْظِيف البَيْت وتَرتِيبِه كانَت سميرة وأَخُوها يَلهُوان ببَعْض الأَلعاب ويَسْتَعِدَّان للرُجُوع إلى المدرَسَة وفي أجسامِهما وقُلُوبِهِما نَشاط جَديد .

فَرِحَت سميرة بالمرْيُول الجَدِيد والقُبَّعَة القَشِّ الجَدِيدة . جَرَّبَتْهُما أَمامَ المرآة وأُعجِبَتْ بِهما . أَخرَجَت من الخزانة حَقِيبة الكُتُب القديمة لتَحشُوها بكُتُب ودفَاتِر جَدِيدة . حِين انتَهَت خَرَجَتْ إلى سَاحَة الدار تَلهُو مع سمير بمُلاحَقَة زِيزَان الحَرِير وغِزلان الماءِ[1] الحائِمة بجَانِب البِرْكة . هما الآن وَحْدَهُما في البَيت ، يَتَنَقَّلان كالنَحْل من جانِب إلى آخر ، يُسَلِّمانِ على الأَشياءِ التي هَجَرَاها .

هُوذا غَزال أَزرق كبِير يَقِف على حافَّة البِركة . تركُض

(١) غزال الماء: حَشَرة تَحُوم حول الماء ، منها الحمراء والزرقاء والصفراء ، لها أجنِحة رقيقة وَذنَب طويل Libellule .

سميرة لالتقاطه فَيَنْتَقِل من جانب إلى آخَر ثُمَّ يَعُود إلى ناحِيَتِها لكنَّه لا يَزَال بعِيدا . تَمُدُّ يَدها . تَنْحَنِي لالتِقَاطِه وفَجأَةً تَزلَق رِجْلُها فَوق البَلاطَة المَلْساءِ ، تُحسُّ أَنها بدأَت تَهوي إلى المـاءِ .. آه لقَد ثَقُلَ رأَسُها ولَذَعت خَدَّيهـا بُرُودَة الماءِ الأَخضَر الذي مَلأَ البِركة حتى أَعلاها ... تَكادُ تَسقُط وتَبْتَلِعُها الهُوَّة ولكن ... سمير يَقْفز نَحْوَها بِخفَّة الغَزَال ، يَشُدُّ بِتَنُّورَتِها بكِلْتا يَديه . يَشُدُّ بقُوَّة غَرِيبَة ويَجُرُّها إلى الوَراءِ فتَقَع على ظَهرِها . ويَخبِط رأْسُها الأَرض فَتَصِيح من الأَلَم ، لكنَّها تَشْعُر بانْفِراج ... لقد نَجَت منَ الغَرَق . نَجَت مِنَ المَوْت .. ستَلْبَس غدا مريُولها الجَدِيد اللامع وبِرنَيْطتَها الصَفْراءَ وتَذْهَب هي وسمير إلى المدرَسَة . وترى رفِيقاتها نجلا ووداد ورضى وترى جُوجو .

لقد نَجَتْ مِنَ المَوْت بفَضْل سمير ! غَفَرَت لـه كُلَّ سَيِّئاته ، كُل ما أَخطأَ به نَحْوَها فيما مضى . وأَصبَح سمير في نَظَرِها بَطَلاً صغِيرا مِثل أَسعد ابن الراعِي عَزَّام .

جَلَسَتْ تَستَرِيح من وَهْلَتِها بينما كان أَخُوها يَركُض بزِيز الحَرِير المربُوط بِخَيط ، كأَن شيئاً لم يَحدُث !

حين أَخبَرَت جَدَّتها فيما بعد أَنَّها أَوشَكَت على الغَرَق في البِركَة قالَتِ الجَدَّة : يَجِب أَن نَسقُف هٰذه البِركَة . عَجَباً !! كَيْف لم يَخطُر ذٰلك ببالِنا مِن قَبل !

في خلال أَيام قلِيلة جاء فَعَلَةٌ سَقَفُوا البِركَة بالإِسْمَنْت . مَدُّوا فوقَها سُطَيحة واسعة مَلْساء ، كانَتْ سميره تَجْلِس فوقها على كُرسِيِّها الصَغِير تَحْتَ العَرِيشة التي ظَلَّلَتْ مُقَدَّم البَيت مِن جانِب إلى آخر ، فتُواجِه البَحْر الأَزرق الكَبِير وتَسْتَعِيد ذِكرَيات جَمِيلة . لكنَّها لا تَدري أَيُّهما أَحَبُّ إليها ، البَحْر أَم الجبَل ، المدْرسة أَم العُطلَة ؟



تمّ طبع هذا الكتاب على مطابع « دار الكتاب اللبناني » – بيروت

مجموعة قصص عالمية للاولاد

مجموعة قصص للاطفال

١ ـ نفنوفة وقصص اخرى
٢ ـ اصوات الغابة
٣ ـ زاهي وناهي
٤ ـ بياع الطرابيش
٥ ـ النملة والبرغوث
٦ ـ الحمار في العرس
٧ ـ الاخوات الثلاث
٨ ـ نادرة والسمكة

مجموعة قصص للاولاد

١ ـ قصص من الحياة
٢ ـ قصص عجيبة
٣ ـ ٤ ـ سميرة في الساحل
٥ ـ ٦ ـ سميرة في الجبل
٧ ـ ٨ ـ حكايات جحا
٩ ـ حكاية ابي علي
١٠ ـ حذاء الطنبوري
١١ ـ الهررة والاسماك
١٢ ـ الامير يوسف والاميرة لبلبة
١٣ ـ حكاية وليم تل

اغاني وتمثيلات للصغار

حديقة الاشعار للأطفال

حديقة الاشعار للاولاد

مجموعة قصص مسرحية للأولاد

١ ـ ثلجة ووردة
٢ ـ اربع مسرحيات مغناة
٣ ـ البنفسجة الطموح
٤ ـ بنت الطحان
وبرامج اخرى ليوم الأم
٥ ـ عنتر وعبله